

قراءة في فكر الإمام موسى الصدر

بقلم عبد الهادي محفوظ

العمل من خلال اطار اوسع فيه من التنوع الطائفي ما يسمح بالوصول الى تحديات جامعة لما هو مشترك بين اللبنانيين. وبالفعل هذه كانت غاية البيان عن الحوار المسيحي الاسلامي الذي صدر في 8 تموز 1965 عن ثمانين شخصيات معروفة هي المطران جورج خضر والشيخ صبحي الصالح وفرنساو دوبريه لاتور ويوسف ابو حلقة وموسى الصدر وحسن صعب ويواكيم مبارك...

والحرص على الوحدة الوطنية كان يدفع بالامام موسى الصدر الى اعمال الفكر طويلاً قبل اتخاذ اي خطوات. فعندما طرح مطالب المحرومين كان يهيمه مسبقاً معرفة وقعها عند الشيعة وغير الشيعة. وما لا يعرفه الكثيرون ان السنة والموارنة والكاثوليك في البقاع الشمالي تجاوبوا معه قبل الشيعة بسرعة كبيرة ذلك انهم لمسوا ان المطالب الانمائية التي طرحها سواء حيال السياسة الزراعية او مشروع العاصي او بناء المستشفيات والمدارس ومد شبكات المياه والطرق وفتح ابواب وظائف الدولة... لمسوا ان هذه المطالب تعنيهم قبل غيرهم... ذلك انهم وجدوا في الامام الصدر مرجعية لهم لا تتوافر في المرجعية السياسية... وهكذا ترجموا تجاوبهم معه بشكل أسرع وأفضل من شيعة البقاع الذين ترددوا بين المرجعية السياسية ومرجعية الامام. وما ينطبق على شيعة البقاع ينطبق على شيعة الجنوب. وبالفعل كسرت بلدة رسال السنينة في البقاع الشمالي اغلاق منطقة البقاع على الامام فكان الاستقبال الاول الحاشد له الذي تلاه ان دير الاحمر المارونية احتفلت بالامام وفتحت له كنائسها وبيوتها... ومن ثم كرت السبحة وكان مهرجان المئة الف في مدينة بعلبك. وكل هذه الامور كانت قد تمت قبل سنة من اندلاع الحرب الاهلية حيث فوجئ الامام بان اهالي بلدة القاع الكاثوليكية قد شكّلوا لجاناً زراعية جاءت تعلن ولاءها له وتطالبه بمساندتها برد ملكية الارض للمزارعين الذين اضطروا لرهنها خلال الحرب العالمية الثانية لعائلات سياسية قد تلجأ الى طردهم منها في حال وصلت مياه العاصي الى مزارع القاع... وتجاوب معهم الامام بحيث انه عندما عرض على الاستاذ اسعد جعفر احد مؤسسي حركة المحرومين مهمة قيادية رفيعة قال له هذا الاخير "هذا يعني انني اتخلي عن ملف القاع" اجابه الامام "لا ملف القاع اهم تتخلي عن المهمة..."

بناء الوحدة الوطنية من جانب الامام موسى الصدر كان يتم من تحت اي من القاعدة وبعتماد مفاهيم بسيطة وبدون تعقيدات ايدولوجية. ومن دون اللجوء الى مقولات الطبقة او الاشتراكية اصطف الى جانبه العمال والمزارعون والحرفيون والبورجوازية الكبيرة التي تضررت من نظام المزارع السياسية والتي التفتت مع الامام الصدر حول فكرة تحديث الدولة والادارة وعصرنة الاقتصاد وانماء الريف. فالامام حاول معالجة ظاهرة احزمة البؤس التي طوّقت بيروت مثل عنق الزجاجة، على حد تعبيره ورد هذه الظاهرة الى العلاقة الهشة للدولة بالاطراف حيث ان "لبنان الكبير" بقي فعلياً في حدود المتصرفية مع ضم شكلي للأقضية الاربعة وبحيث ان الدولة تم اختصارها في العاصمة بيروت كمركز للنشاط السياسي والاداري والاقتصادي والخدماتي... وهذه المقاربة لعلاقة بيروت بالاطراف يقع على مثلها المراقب والمتابع في فكر الزعيم الصيني ماو تسي تونغ... وهذا ان دل على شيء فعلى كون الامام استفاد من تجارب الآخرين ووظفها حيث يجب لبناء الوحدة الوطنية عبر الاشارة الى عوامل التفكير وعناصر الخلل البنيوية. وهنا ومن دون شك فان الامام انتج نظرية سياسية لمفهوم الوحدة الوطنية دمج فيه بين معطيات مختلفة بما فيها معطى "المتحد الاجتماعي" عند انطوان سعادة.

ففي احدى المرات التي كان يتم فيها نقاش الوضع داخل الطائفة الشيعية قال لي الامام ينبغي في مطالبنا في مرحلة اولى ان يتوحد كل الشيعة بحيث نغزل الاقطاع السياسي... وان يتزامن ذلك مع حركة تغيير في كل الطوائف وعلى مستوى الوطن... ولا يمكن ان يكون التغيير طائفيًا. فالهدف ينبغي ان يكون واضحاً واماناً وهو وحدة الشعب". اذاً الحرب اللبنانية قطعت موقتا على الامام موسى ترجمة مشروعه حول وحدة الشعب والمتحد الاجتماعي... فالحرب انتهت فتنة طائفية وان تزّيت بشعارات من هنا وهناك. وحرصاً منه على مفهوم الوحدة الوطنية حاول قطع الطريق بدوره على الحرب عندما اعترض على شعار عزل الكتائب الذي طرحته وقتذاك الحركة الوطنية. اذ رأى ان تطبيق هذا الشعار عملياً يعني "عزل المسيحيين"... كما انه رفض مقولة تغيير النظام بالقوة وباستخدام السلاح وبتوظيف المعطى الفلسطيني في عملية التغيير ذلك انه كان يدرك بنظرته الثاقبة الانعكاسات السلبية لمثل هذه الطروحات على الوحدة الداخلية حيث لم يؤخذ في الاعتبار لا عامل الفتنة الذي يتأتى عن ذلك ولا العامل الاسرائيلي المتربص بالداخل... وفي هذا السياق يفترض قراءة اعتصام الامام كاعتراض على استمرار الحرب وكدعوة تحريض للناس لوقفها ولخلق رأي عام ضاغط.

كان الامام يرصد حركة الاعلام في بدايات الحرب. ولهذا رأى ان هذه الحرب يمكن اعتبارها الحرب الاعلامية اولا. "فعن هذا التشنج الاعلامي الذي صرفت له الملايين والذي تجندت له الافكار والمواهب نتج حرب العقول والنفوس وادى كل ذلك الى حرب الايدي والسلاح والمآسي والكارثة... وأحد الاسلحة الاساسية لحماية الوحدة الوطنية النتاج الطبيعي ل"الصيغة اللبنانية" التي هي حصيلة حوار حضارات متعددة على امتداد الزمن هو الاعلام خصوصاً على ما يقول الامام بأن الصيغة لم تسقط في الحرب فالتعايش بين اللبنانيين ليس ملكاً للبنانيين لكنه امانة في يد اللبنانيين ومسؤوليتهم وواجبهم وليس حقهم فحسب. واهمية الصيغة اللبنانية التي تعني فيما تعنيه "التمسك بوحدة لبنان وانسجامه

الامام موسى الصدر شخصية أسرة. نجح في اضافة ابعاد الى تفكيره لا يمتلكها الآخرون والبعض يرى ان هذه "الأبعاد" كانت في الاساس من مكونات شخصه وعنصرأ اساسياً في التأثير على محيطه. فجمع بين القديم والحديث، بين الثقافة الدينية والثقافات الحديثة، وكل الذين التقوه ادركوا انهم امام قائد متواضع يعرف كيف يدخل العقل والقلب: كيف يوصل ما يريد وكيف يقنع النخبة والعامّة. ولانه محاور من الطراز الاول آمن بالحوار واعطى بلده لبنان الذي طالما سمّاه الوطن الصغير المكان الاساسي الذي يرمي اليه الحوار. ف"الوطن الصغير" الذي تمكن من "حمل مشعل الثقافة والحضارة ردحاً طويلاً من الدهر يمكن ان يصبح مصدر الشرور والاطخار وان يقض المضاجع". ولذا كانت دعوته الاساسية هي وقف الحرب الاهلية فوراً. فالحرب ليست فعل المدافع فقط على ما يقول، انما "حرب العقول والنفوس والألسن أيضاً. فالألسنة والأقلام خاضت حرباً تجاوزت في شرستها الأسلحة الفتاكة فاختلفت وشوّهت وحببت وكزّهت وضخّمت وصفّرت وحطمت وتجاوزت حدود أفكار غوبلز".

والاقلام التي يقصدها الامام موسى الصدر هي الاقلام التي روّجت للحرب الاهلية واستجابت لغة الغرائز ودوافع التحريض الخارجي التي مؤلت هذه الحرب وسلحتها ولاقت استجابة عند ميليشيات الحرب. فمقولة حروب الآخرين على ارض لبنان لا تكفي وحدها لتفسير الحرب اللبنانية، فهذه الحروب ما كانت لتقع وتتفاعل وتقسّم اللبنانيين الى احياء ومناطق متقابلة لولا استجابة اللبنانيين لها ولو لم تجد ارضاً خصبة عندنا وفي حاجة الزعامات الطائفية الى تجديد نفسها عبر زرع الكراهية ولغة الموت والخوف والهواجس. وهنا روج الاعلام للحرب عندما اعطى الطوائفيين مكاناً في اعلامه المكتوب وعلى شاشاته عندما شرّع الابواب للخطاب الطائفي... هذا لا يعني اطلاقاً ان الاعلام مسؤول عن الحرب انما يعني فقط انه قصر دوره على نقل واقع الحرب كما هي مواجهات بين ميليشيات وطوائف ولم يحاول جدياً صناعة رأي عام ضد الحرب وصانعيه ومروجيها.

وحقيقة الامر ان الحرب فاجأت الامام موسى الصدر قبل استكمال مشروعه السياسي الذي يستهدف بناء الدولة والانسان. ولذا عندما انفجرت احداث 13 نيسان 1975 وكنت وقتها مكلفاً منه ببناء حركة المحرومين في الضاحية الشرقية من بيروت، استدعاني الامام الى مقره في الحازمية وقال لي: دورك اطفاء الحريق بين مخيم تل الزعتر والكتائب والحوؤل دون وصولها الى حي النبعة. وعندما قلت له هذا الموقف يتناقض مع مقولة وحدة المحرومين من ارضهم والمحرومين في ارضهم اجابني: "هذه الحرب هي ضد لبنان وضدنا وضد الفلسطينيين ولا بد من ايقافها بأي ثمن فالكل فيها خاسرون"، وكان على حق. فالامام موسى الصدر الذي كان يدعو الى ان السلاح زينة الرجال في مواجهة اسرائيل كان ضد استعمال هذا السلاح بين اللبنانيين انفسهم. فالوحدة الوطنية بالنسبة اليه هي الاساس وهي غير ممكنة من دون تغليب ما هو مشترك بين اللبنانيين والاولوية لهذا المشترك. فالخطر الخارجي المتمثل بالعدو الاسرائيلي يتوحد حوله اللبنانيون، اما الفتنة الطائفية فتؤدي الى التفكك والتفتيت والانهيال الداخلي... وعلى هذا الاساس تعاطى مع مقولة الحرب. فالامام الصدر هو داعية الوحدة الوطنية ووسيلته الى ذلك هي الحوار وبدأه مبكراً في صور بالممارسة حيث جعل جمعية البر والاحسان لا تقتصر في نشاطاتها على الطائفة الشيعية، "فصندوقها يدخل فيه الخير من الجميع.. ويدها تمتد لمساعدة الجميع". والكل يعرفون كيف ان الامام موسى الصدر اسقط اوهاماً خاطئة واعتقدت لا اساس لها من بعض اهل صور الشيعة الذين كانوا قاطعوا شراء البوظة من مقهى يملكه مسيحي. فتقصّد الامام الصدر خروجه يوم الجمعة من الجامع وذهب الى المقهى المعين وأكل بوظته أمام الجميع... فأسقط بالممارسة الوهام والاعتقادات الخاطئة.

كان الامام يعرف تمام المعرفة ان اي تغيير جدي على المستوى اللبناني يستحيل ان يقتصر على طائفة واحدة او على ثنائية طائفية... فالتغيير عمل وطني ممكن بقاعدة وطنية عريضة اساسها المحرومون في كل الطوائف... وهو كان يسعى الى هؤلاء المحرومين الذين يطمح الى توحيدهم بلغة غير طائفية من خلال ما يجمع بينهم. وكانت المسألة الاجتماعية عنصراً أساسياً في هذا الطموح كما كان بناء الوطن على قاعدة الدولة القادرة والعدالة والمدنية مدخلاً لكسب النخبة والبورجوازية المتنورة والمتضررة من مزارع الاقطاع السياسي التي حالت دون ان تبلغ الشهامة السياسية غايتها في تطوير المؤسسات الجامعة. وبهذا المعنى كان الامام يدرك اخطار الطائفية على مشروعه. ولذا كانت مساهمته الاساسية في اطلاق حملة الحوار المسيحي الاسلامي عبر "مبّر الندوة اللبنانية" وكانت له محاضرات عدة في كنيسة الكبوشية واليسوعية... وكان هدف هذه المحاضرات تعميق اللحمة في البنية الاجتماعية العامة والتركيز على ان الدين في جوهره هو واحد غايته بناء الانسان وازالة الحواجز التي نصبها عوالم مفتعلة يبرأ منها دين الله الحق. وهكذا كان تركيز الامام الصدر على انه "عندما نلتقي في الله تكون الاديان واحدة. وخدمة الانسان هي الطريق الى الله وان التقاسم المشترك بين المسيحية والاسلام هو الانسان الذي هو هدف الوجود وبداية المجتمع والغاية منه والمحرّك للتاريخ".

طروحات الامام الصدر لاقت تجاوباً لدى النخبة المسيحية وفي الاوساط الكنسية واعتبرها المطران غريغوار حداد توجهات تلتقي مع ما يطرحه في تنظيم "الحركة الاجتماعية" التي كان قد اسسها... وكانت حوارات بين الاثنين مطلع ستينات القرن الماضي وصلت فقط الى درجة التعاون في مجال الخدمة الاجتماعية. فالامام موسى أثر

مع المنطقة وصيانة كونه امانة للحضارة العالمية... اهميتها انها نموذج لحوار الحضارات الذي يمكن تقديمه بديلاً لنظرية "صراع الحضارات" التي روج لها بعد احداث الحادي عشر من ايلول والتي تركز على الصراع بين الحضارتين الغربية والاسلامية. وهذه النظرية تجد من يحبها في اليمين الديني والسياسي الاميركي وداخل الادارة الاميركية رغم ان العالمين العربي والاسلامي ادانا عملية الحادي عشر من ايلول التي استهدفت البرجين والبتاغون. والمقصود هنا انه يمكن للاعلام اللبناني والعربي ان يسهم في تسليط الضوء على حوار الحضارات عبر الصيغة اللبنانية التي هي عنوان على انفتاح الاديان بعضها على بعض. فالاعلام في رأي الامام موسى الصدر مادة تغذية ثقافية للروح ولتهذيبها. ذلك ان المهم هو الرسالة التي يحملها الاعلام الذي هو من "عوامل تكوين الانسان اللبناني". فقد اعتبر الامام باستمرار ان الحل الطائفي هي بلاء للوطن كما ان الحل النابعة من التحدي مرفوضة.

في ضوء الملامح العامة للنظرية السياسية عند الامام موسى الصدر في جانب علاقة الوحدة الوطنية بالاعلام والحوار بين اللبنانيين وفي ظل مقولة حوار الحضارات يمكن صياغة بعض الاقتراحات:

أولاً - تشكيل لجنة المتابعة للحوار المسيحي - الاسلامي لاستكمال ما كان قد بدأه الامام موسى الصدر مع رفاقه الثمانية 1965.

ثانياً - تعميم محاضرات الامام الصدر والاب يواكيم مبارك حول الحوار الاسلامي - المسيحي ونشرها وتسليط الضوء على المناقشات في لجنة الحوار ومحاضرها.

ثالثاً - الافادة من النوافذ المسيحية المشرقية على الغرب المسيحي لتصحيح ما يروج من افكار خاطئة عن الاسلام ولا يبرز القيم المشتركة بين الديانتين التي اشار اليها اخيراً المستشرق والباحث الاميركي برنارد لويس.

رابعاً - المساهمة بسحب سياسات التحدي في العلاقات سواء من جانب السلطة او من المعارضة وفتح قنوات الحوار على قاعدة تبريد الاجواء.

خامساً - الالتزام بالسلام العادل والشامل على اساس القرارين 242 و338 ومرجعية مدريد ومبدأ الارض مقابل السلام، بما يعني ذلك اقامة الدولة الفلسطينية وتحرير كامل الجولان ومزارع شبعاء.

سادساً - تعجيل اقامة سوق عربية مشتركة عبر معادلة لبنانية - سورية تبرز اهمية التكتلات الاقليمية في زمن العولمة. وتستفيد من فرص توظيف رساميل عربية بعد احداث الحادي عشر من ايلول، وعدم اطمئنان الرأسمال العربي الى توظيفات في الاسواق العالمية. ومن هنا فان معالجة ازمة العلاقات السورية اللبنانية بما ينتج الانفراج والود والصدافة امر لمصلحة لبنان وسوريا معاً. ولأنه لا مكانة للدولة الصغيرة فان المصلحة اللبنانية والسورية في ظل نظام العولمة وفي ظل سياسة التكتلات الاقتصادية ان يقوم محور لبناني - سوري يكون مقدمة لتضامن عربي ازاء سياسات التفتيت والفوضى المنظمة. فلا حياة للبنان من دون الداخل العربي الذي يحتاج بدوره الى الخصوصية اللبنانية.

سابعاً - ثمة حاجة ماسة الى اعتماد المجتمع السياسي والمدني صفات وتعريفات محددة لما هو "مشترك" بين اللبنانيين وانما يلقي تفسيرات مختلفة مثل: السيادة، الطائفية، التعايش، الهوية، الديمقراطية، الديمقراطية التعددية، والديموقراطية التوافقية، الوطن النهائي. ومساهمات الاعلام هنا قيمة في تثبيت هذه المفاهيم وجعلها مشتركة بين اللبنانيين. وان مثل هذه المهمة تفترض حواراً في العمق يمكن ايجاد اجوبة له في الصيغة اللبنانية وفي فكر الامام موسى الصدر وفي التجربة الشهابية... ومن هنا الحاجة الى مركز دراسات للحوار يأخذ على عاتقه دعوة كل المعنيين الى المصارحة والمناقشة على قاعدة الشفافية واستناداً الى ان التنوع الفكري يمكن ان يكون عنصر تكامل وغنى واشباع للحوار الذي هدفه النهائي اعمار الانسان والارض كما علمنا الامام الصدر الذي لا يلغي تغييره حضوره بيننا وفيها.

ثامناً - حفظ المقاومة امانة الامام الصدر للبنانيين. وهي ضرورة لاستكمال تحرير الارض والحوؤل دون الاعتداءات الاسرائيلية وسرقة المياه والتوطين.

تاسعاً - الاستفادة من كون معادلة لا غالب ولا مغلوب في تشكيل الحكومة المرتقبة مدخل لتعزيز السلم الاهلي وتوسيع رقعة الهدنة باعتبار ان التاريخ اللبناني هو تاريخ حروب تقطعه هدنات طالما لم تبن الدولة القادرة والعدالة، وطالما لم ينفذ اتفاق الطائف في بند إلغاء الطائفية السياسية وانشاء مجلس الشيوخ. فليس من قبيل المصادفة انه في البيان الحكومي الاول لحكومة الاستقلال في العام 1943 ورد ان الطائفة تقيد التقدم الوطني من جهة وتشوه سمعة لبنان من جهة اخرى فضلاً عن انها تسمم العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني وانها في معظم الاحيان اداة للمنافع الخاصة.

موسى الصدر ليس ملكاً لطائفة، انه اغناء للصيغة اللبنانية وعلى النخبة ان تعمل على فكرة وصولاً لمعادلة "نريد ان نكون مواطنين في وطن لا مواطنين في طوائف"... فالامام موسى الصدر بما طرحه من افكار ورؤى يمكن استلهاهم للخروج بنظرية سياسية تخرجنا من ازمة الطوائفية السياسية وتحمينا من "العامل الخارجي" الذي يتوسل نظرية "الفوضى الخلاقة" تحفيقاً لمصالح دولية تؤسس على التفتيت واطلاق فرضيات الفيدرالية والضغط على سوريا ولا تأخذ في الاعتبار اطلاقاً "المصالح اللبنانية". في الحوار البناء وفي مقاربة بناء الوطن على قاعدة الانماء المتوازن وفي تغليب المشترك بين اللبنانيين وفي استبعاد مقولة المواطن في طائفة وفي اغناء الصيغة اللبنانية باعتبارها النموذج الامثل لحوار الاديان نكون قد ترجمنا فعلاً فكر الامام الصدر الخلاق الى ممارسة منتجة وخلاقة.

النهار، الإثنين ٣١ آب ٢٠٠٩